تساؤلات حول إشكاليات التنظير في علوم الإعلام والاتصال
محاولة لرصد إسهامات الباحث العربي وسياقاته في التنظير

د. غالم عبد الوهاب.
جامعة مستغانم– الجزائر

تمهيد

تعد مسألة التنظير من أعقد الإشكاليات التي واجهت علوم الإعلام والاتصال، قبل تشكله، أثناء بناء قاعدته النظرية وحتى بعد الاعتراف به ضمن العلوم الاجتماعية والإنسانية التي لها كيان خاص، حيث يجد المتتبع لتطور نظريات الاتصال امتداد مباشر لتأثر الباحث بالسياق، المرجعية والايدولوجيا رغم الإقرار بموضوعية العلم، حيث راح الباحثون في هذا التخصص الناشئ يستلهمون كل من يصب في مواضيع الإعلام والاتصال لتكوين تراكم معرفي متشعب التخصصات ويسمح بإقامة علم قائم بذاته.

في هذا الإطار، نجد أن المرجعية الأساسية لعلوم الإعلام والاتصال هم ذلك الآخر المتخندق في البراغماتية البحثية –التيار الإمبريقي– أو الذي يقف على الضفة الأخرى ناقدا لوضع اجتماعي ساهمت وسائل الإعلام في تشكيل صورته النمطية وجعلت منه يقف عند الآثار تحديدا لا تعديلا.

يقول عزي عبد الرحمن في هذا الإطار "الحاصل أن الاتصال[1] ونظرياته ليس فيه الكثير من التراث على اعتبار أنه ارتبط تاريخيا بظاهرة تقنية كاكتشاف الإذاعة والفيلم وغيرها من تقنيات الاتصال، أي أنه ظاهرة غربية"[2]، هذا الحديث يجرنا مباشرة إلى التداول الكبير في الفكر الغربي حتى في السياقات الغربية، خاصة فيما يتعلق بتاريخ نظرية الاتصال.

تحاول هذه الورقة البحثية طرح مجموعة من الأسئلة أكثر من إيجاد إجابات، حيث تسعى إلى متابعة جوانب من تاريخ التنظير في علوم الإعلام والاتصال وأين وصل في العالم الغربي، محاولة معرفة دور الباحث العربي المسلم ومرجعيات السياق العربي الإسلامي في تشكيل القاعدة النظرية لهذا اعلم الوافد من الغرب والمؤثر في مجالات البحث في السياق العربي الإسلامي، ولعل من أبرز التساؤلات التي تطرحها هذه المحاولة:

ما هي أهم الملاحظات التي يتوصل إليها الباحث من خلال مسح تاريخ التنظير لعلوم الإعلام والاتصال؟

ما دور الباحث العربي في إرساء القاعدة النظرية لهذا العلم؟

---

[1] يستخدم عزي عبد الرحمن الاتصال هنا بمفهوم الإعلام "وسائل الإعلام" والاتصال "بين أفراد المجتمع" معا.

[2] عزي عبد الرحمن : دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان، 2003، ص 7.

ما هي المرجعيات الدافعة للباحث العربي لمعالجة إشكاليات متعلقة بأي الفروع الخاصة بعلوم الإعلام والاتصال؟

ما دور السياق بمختلف زواياه –اجتماعية، سياسية، اقتصادية، ثقافية، إديولوجية...إلخ– في تحديد اسهامات الباحث العربي؟

ما دور نظرية عزي عبد الرحمان في رسم أفق آخر للإسهام في مراجعة المفاهيم والمساقات ورسم معالم جديدة لعلوم الاعلام والاتصال –تستفيد من الآخر ولا تتحلل في إسهاماته–؟

أولا: تطور الأبحاث الإعلامية والاتصالية

تعتبر الظاهرة الإعلامية شأنها شأن الظاهرة الاتصالية من الظواهر التي ركز عليها العديد من الباحثين ومن مختلف التخصصات العلمية، ذلك أن علوم الإعلام والاتصال علوم متشعبة الاتجاهات والمصادر، خاصة إذا ما كان الحديث عن بناء القواعد النظرية لهذه العلوم الحديثة النشأة نسبيا.

في هذا الإطار يرى دومينيك فولتون "Dominique Wolton" أن علوم الإعلام والاتصال ونتيجة غياب بناء فكري مشترك، وفي ظل تعدد النظريات أصبح علما متعدد التخصصات يتطلب التبادل بين الباحثين من حقول معرفية مختلفة[1].

في عام 1985، قام الباحث دومينيك فولتون "Dominique Wolton" في فرنسا وبطلب من المركز الوطني للبحث العلمي "CNRS" بتحرير تقرير يرى من خلاله "أن ميدان الاتصال لا يستطيع، بل لا يجب أن يكون موضوع علم موحد، فهو بطبيعته ميدان متشعب، يخص ثلاث قطاعات كبرى والتي تتمثل في العلوم العصبية ""، والعلوم المعرفية "" والعلوم الاجتماعية ""، كما يخص العديد من التخصصات على غرار الفلسفة، الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، الجغرافيا، التاريخ، الحقوق، العلوم السياسية، علم النفس..."[2].

من هذا المنطلق، اكتسبت علوم الإعلام والاتصال هذه الخاصية من تعدد الآباء الأوائل الذين أسسوا للقاعدة النظرية الخاصة بعلوم الإعلام والاتصال من جهة، وتعدد التخصصات التي ساهمت في التأسيس لهذا العلم الذي لا زال بعض الباحثين يشككون في مدى علميته انطلاقا من هذه الإشكالية، وهو الأمر الذي دفع دومينيك فولتون "Dominique Wolton" إلى ترجيح مفهوم علوم على حساب علم.

من هنا تظهر المشكلة التعريفية التي عرفتها علوم الإعلام والاتصال، بين تيار يعتبر الظواهر الإعلامية مجرد مجال بحث تدرسه مجموعة من العلوم الإنسانية والاجتماعية وحتى الطبيعية،

---

[1] Dominique Wolton : penser la communication ;Ed Flammarion ; Paris :1997 ; pp 83-84.

[2] Philippe Cabin et autres : la communication ; Etat de savoir ; Ed sciences humaines : Auxerre ; 1998.p50.

مشككين في علمية هذا العلم الحديث النشأة، وبين من يحدد الإعلام في علم بالمفرد، وآخر يرى أنها علوم بالجمع، فحداثة علوم الإعلام والاتصال مع الجمع بين المفهومين تدل على تعقد التسمية وتعدد مشاربها.

في هذا الإطار تقول مي العبد الله "إن استخدام الجمع (علوم)، وعبارتي "إعلام" و"اتصال"يدل على عدم دقة هذا القطاع، حيث يعمل متخصصون في مجالات مختلفة ومتباعدة، يأتون من الحقوق أو الاقتصاد أو التاريخ أو مجال الألسنية أو علم النفس أو علم الاجتماع"[1].

إن الحديث عن تاريخانية تطور الأبحاث الإعلامواتصالية، لابد أن يجرنا إلى الحديث عن البحوث الأولى التي انطلقت بداية من عشرينات القرن الماضي، وهي البحوث التي خصت دراسات تأثير وسائل الإعلام على الجمهور، حيث بدأ النقاش بإشكالية هل وسائل الإعلام تؤثر في الفرد والجمهور أم لا، ليتحول النقاش فيما بعد إلى الحديث عن مدى ودرجة تأثير هذه الوسائل، حيث حصل ذلك بعد التسليم بوجود التأثير[2].

نتج عن هذه الإشكالية العديد من النظريات، امتدت علة ثلاث مراحل، بدأت المرحلة الأولى من العشرية الأولى للقرن العشرين إلى بداية الحرب العالمية الثانية، حيث اهتم الباحثون بدراسة الأثر السحري لوسائل الإعلام على الجمهور، فظهرت في هذه الفترة نظرية القذيفة السحرية.

بينما امتدت المرحلة الثانية من الثلاثينات للقرن الماضي إلى العقد السادس، حيث تميزت هذه الفترة بالرد على نظرية القذيفة السحرية، معيدة النظر في النموذج الذي يقر بالتأثير القوي لوسائل الاتصال الجماهيري في الجمهور، حيث نتج عن هذا النقد العديد من النظريات التي اتفقت على محدودية الأثر وتواضعه، مشيرة إلى أن وسائل الإعلام ما هي إلا عاملا من بين عوامل أخرى اجتماعية، اقتصادية وثقافية، تؤثر جميعها على سلوكيات واختيارات الأفراد[3].

بينما بدأت الفترة الثالثة مع منتصف العقد السادس، حيث ذهب الباحثون خلال هذه الفترة بمراجعة وإعادة النظر في الطرح القائل باحتمالية تأثير وسائل الاتصال الجماهيري على الجمهور، حيث تزامنت هذه البحوث والدراسات مع الانتشار الاجتماعي للتليفزيون، كما أنها تميزت بعمق الطرح وثرائه.

يعطي إلقاء نظرة بانورامية على تطور الأبحاث الإعلامية على مر المراحل المختلفة المشار إليها إلى ملاحظات أساسية:

---

[1] مي العبد الله: إشكاليات علوم الإعلام والاتصال وانعكاساتها على واقع الأبحاث العربية، في ثورة الصورة ، المشهد الإعلامي وفضاء الواقع، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت،2007، ص77.

[2] Judith Lazar : la sociologie de la communication de mass ; Ed Armand colin ; Paris.1991 ; P143.

[3] عزيز لعبان: وسائل الإعلام والمجتمع، إشكالية التأثير: من الأثر المؤكد إلى الأثر المحتمل، في مجلة الوسيط للدراسات الإعلامية، دار هومة، الجزائر، 2006، ص7.

- عمق الطرح النظري وإعمال آليات النقد من مرحلة بحثية إلى أخرى.
- أغلبية البحوث كانت تعالج إشكاليات مرتبطة بوسائل الاتصال الجماهيرية، دون أن يعني ذلك غياب الدراسات الخاصة بمستويات الاتصال الأخرى.
- كل النظريات تشير إلى أبحاث غربية أنجلوسكسونية بالدرجة الأولى.
- الأبحاث ناتجة عن دراسة السياق الغربي بما يحمله من مواصفات اجتماعية، سياسية ثقافية وحتى اقتصادية.
- غياب السياق العربي عن هذه الدراسات رغم أن العديد من الباحثين العرب اشتغلوا على الإشكاليات ذاتها.

كما أن العديد من البحوث والدراسات التي خصت الظاهرة الاتصالية مع اختلاف المقاربات التي استعملت فيها، أدت إلى تزامن النظريات الاتصالية والنماذج المستخلصة منها للنظريات الإعلامية، أو تلتلها من حيث البعد الكرونولوجي، الأمر الذي أدى إلى إثراء الحقل المفهوماتي لعلوم الإعلام والاتصال، دون نسيان التطور الحاصل في المناهج البحثية وتطبيقاتها في هذا المجال العلمي.

ثانيا: بحوث ونظريات التأثير

تتميز علوم الإعلام والاتصال بثرائها النظري، حيث تأسست نظرياتها على اختلاق المقاربات المنهجية من جهة، وتعدد التخصصات العلمية التي أسست في بداية الاعتراف بعلمية علوم الإعلام والاتصال القاعدة النظرية لهذا العلم المحدد بصيغة الجمع باتفاق أغلبية الباحثين.

يأتي الحديث عن بحوث التأثير والنظريات التي خلصت إليها وحتى نماذج الاتصال التي هندستها باعتباره دليلا على تجاوز علوم الإعلام والاتصال للمرحلة الفلسفية إلى المرحلة التجريبية، حيث ترى جيهان رشتي "أن تاريخ الأبحاث العلمية يبدأ بالمرحلة الفلسفية التي تنتهي بالتوصل إلى اتفاق عام على بعض المبادئ الأساسية وبعض الطرق وأساليب البحث، وبعد ذلك يتطور البحث العلمي وينتقل من المرحلة الفلسفية إلى المرحلة التجريبية التي يتحول فيها الاهتمام من النظريات والمفاهيم الكلية إلى التفاصيل"[1].

نظرية القذيفة السحرية

ترى هذه النظرية أن وسائل الاتصال الجماهيرية تؤثر بشكل قوي على الجمهور، فالرسالة الإعلامية (الدعائية) تسري في الإنسان كما يسري مفعول الحقنة في الدم، حيث يعود هذا الاستنتاج إلى ما قام به الباحث الاجتماعي "كونتريل" بالتعاون مع إذاعة "أورسن ويل" سنة 1938، حيث تم إذاعة معلومة تتعلق بحرب الكواكب[2]، ليكون التأثير كبيرا والذي دام إلى حين،

---

[1] جيهان رشتي : الأسس العلمية لنظريات الإعلام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994، ص16.

[2] عزي عبد الرحمن وآخرون : عالم الاتصال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص39.

أدى إلى خروج السكان إلى الشارع معززا بدلك قوة الإذاعة في التأثير على سلوكيات الجمهور قبل أن تعمم على باقي وسائل الاتصال الجماهيري.

1- نظرية التأثير المحدود أو الانتقائي

جاءت هذه النظرية كخلاصة لأعمال ودراسات قام بها "ستانتون" و"لازرسفيلد" تحت وصاية "مكتب البحوث الإذاعية" التابع لجامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية في أواخر الأربعينيات، حيث كان موضوع هذه الدراسات معرفة تأثير وسائل الإعلام على توجهات الناخبين الأمريكيين في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث استخدم في هذه الدراسات التقنيات المستخدمة في قياس الرأي العام، حيث خلصت الدراسة إلى أن الصحافة لا تغير آراء الجمهور بقدر ما تحافظ على القيم الموجودة[1].

كما أن قدرة الجمهور على الصمود في وجه المواد الإعلامية ترتبط أساسا بمجموعة من الأفعال الانتقائية والتي تشمل التعرض، الإدراك والتذكر، ذلك أن الجمهور يتعامل بانتقائية مع ما تعرضه وسائل الإعلام، ثم يختار من بين ما تعرض له ما يوافق شخصيته وثقافته واتجاهاته ليمرر إلى عملية الإدراك، لتأتي عملية التذكر والاسترجاع بصفة انتقائية من مجموع ما تم إدراكه وتخزينه من مواد ومضامين إعلامية.

2- نظرية التأثير المتواضع

جاءت هذه النظرية كنقد لنظرية التأثير المحدود، حيث ظهرت مع العقد السابع لدراسة التأثيرات البعيدة الأمد لوسائل الإعلام على الجمهور، حيث يرى عزيز لعبان " أن نظرية التأثير المحدود عجزت عن تفسير ما تتركه وسائل الإعلام على الجمهور على الأمد البعيد، مع اكتفائها بتفسير التأثير الآني[2]، من هذا المنطلق انطلق رواد النظرية الجديدة من الانتقادات الموجهة لنظرية التأثير المحدود باعتبارها فرضيات يمكن العمل عليها.

غير أن هذا الإسهام النظري وقع في التقليل من التأثيرات التي تحدثها وسائل الاتصال الجماهيرية في الجمهور، خاصة في بعض الظروف التي توفر لوسائل الإعلام المناخ الملائم الذي يمكنها من السيطرة على المعلومة وتسيير المضمون في اتجاه من يملك المعلومة يملك القوة التي تسمح له بالتأثير في توجهات المتلقي، خاصة إذا كانت المعلومة تتوفر من خلال مصادر محدودة.

إن الملاحظ لكل هذه النظريات التي تدرس في مختلف أطوار التعليم العالي المتخصص في علوم الإعلام والاتصال، يلحظ بصورة جلية أنها بنيت على افتراضات وليدة سياقات غربية، سواء أتعلق الأمر بالمجتمع الأمريكي الذي كان مهدا للعديد من الدراسات الإعلامية والاتصالية

---

[1] عزي عبد الرحمن وآخرون: المرجع نفسه،ص 40.

[2] عزيز لعبان : نفس المرجع السابق، ص 10.

من خلال تبنيه للتيار الأمبريقي البراغماتي واحتضانه للرواد التيار النقدي، أو تعلق الأمر بالمجتمع الأوروبي، هذا الأخير الذي لا يمكن فهم المجتمع الجماهيري والنظريات التي ارتبطت به، وما حملته الميديا إلا من خلال فهمه، مع تغيير للدراسات التي قام بها العرب أو على الأقل الطلاب العرب الذين كان لهم الحظ في التكوين بكبريات الجامعات الأوربية والأمريكية.

كما أن الملاحظ لهذه الأبحاث التي نالت الحظ الكبير من الاهتمام من طرف الباحثين العرب، تعمم ما حصلت عليه من نتائج في دراسات لسياقات وأنساق غربية على باقي السياقات، دون الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الكامنة في هذه السياقات، خاصة على المستوى الديني، التنشئة الاجتماعية والعلاقات بين البنيات الاجتماعية المكونة للبناء العام المتمثل في المجتمع.

ثالثا: تاريخ نظريات الاتصال

إن المتتبع لتاريخ نظريات الاتصال، يصل إلى أن تطور النظريات الاتصالية كان متزامنا مع التطور الحاصل في الأبحاث الإعلامية، كما تزامن ذلك مع تطوير العديد من النماذج الاتصالية، المبنية على أساس مسارات متكونة من مجموعة من الأطراف من مرسل ومتلقي ومجموعة وسائط تتراوح بين الوسائط المادية المتمثلة في الشق التقني ووسائط لا مادية متمثلة في الرسائل والسياقات التي تتبادل وتقع ضمنها العملية الاتصالية.

لقد شملت عملية البحث وهندسة النماذج الخاصة بالعملية الاتصالية كل مستويات الاتصال، من الذاتي إلى الشخصي، فالجمعي والجماهيري، هذا الأخير هو الذي سيطر على البحث الإعلامي الاتصالي في البدايات الأولى، وحتى بالنسبة إلى الباحثين المتأخرين، خاصة في إطار دراسة التأثيرات المترتبة عن الوسائل الإعلامية على اختلافها والمضامين الإعلامية على تنوعها وتنوع فئات الجمهور الذي تستهدفه.

تعتبر علاقة الباحث العربي بالتنظير في علوم الإعلام والاتصال علاقة تشتت المرجعية البحثية والابتعاد عن السياق وتأثيراته، فالعرب في الكثير من الحالات كانوا يلجؤون إلى نقد ما توفر من نظريات غربية، وهذا ما يظهر جليا في المناهج والبرامج التدريسية في مختلف الجامعات العربية والتي تبنى على العرض (مناقشة النظرية والافتراضات والنتائج) ثم تسير إلى النقد الذي لا يعتبر آلية لتجديد المعارف حسب عزي عبد الرحمن[1].

عرف الباحثون الغربيون تطورات عديدة لنظرية الاتصال، فقد تعددت الدراسات في السياق الغربي[2]، متوصلة إلى نتائج هندسة عملية الاتصال وبنت معالمه النظرية، فكانت البداية مع تيارين أساسين، تيار نقدي، أنبنى طرحه على الفكر الفلسفي المعقد، وتيار أمريقي براغماتي بنا

---

[1] عزي عبد الرحمن : دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، المرجع السابق، ص8.

[2] مفهوم السياق الغربي في بحوث الاتصال يشير بدرجة كبيرة إلى البحوث في الجامعات الأمريكية والتي درست أساسا المجتمع الأمريكي، لكنه لا يقضي من جهة أخرى الحقل الأوربي الذي كان اهتمامه متأخرا على الرغم من أن العديد من الباحثين الأوربيين طوروا أفكارهم مفاهيمهم من خلال الاحتكاك بالجامعات الأمريكية.

أطروحاته على الواقعية الاجتماعية ودور الجامعات ومراكز البحث في الإسهام في حركية المجتمع.

رابعا: السياقات العامة للإنتاج النظري في علوم الإعلام والاتصال

تعتبر النظرية شبكة من المفاهيم التي تولدت عن دراسة جزء من المجتمع في حركيته أو أحد بنياته الثابتة، الأمر الذي لا يخرج الطرح الفكري عن تأثيرات السياق الاجتماعي بمختلف مقارباته، وحقل الإعلام والاتصال هو حقل غربي بالدرجة الأولى ونظرياته خاصة الكلاسيكية منها لم تخرج عن الفلسفة الغربية في مختلف تطوراتها وعن مناهج الفكر الغربي على اختلاف تجلياته.

إن الدارس لحقل الإعلام والاتصال، يظهر له جليا حجم الإسهام الغربي في بناء النظرية الاتصالية، فعزي عبد الرحمن لما تحدث عن التكوين الإعلامي[1] وأشار إلى تشبع طلبة الجذع المشترك بالفكر الغربي وطرح الآباء الأوائل لعلوم الإعلام والاتصال لم يكن يشخص وضعية اجتماعية يعيشها فاعلا اجتماعيا معزولا عن تأثيرات السياق وممارسات الفاعلين الاجتماعيين الآخرين، بل قدم تشخيصا واضحا لبنية التكوين في الجامعة الجزائرية آنذاك، وتأثير ذلك على نمط التفكير ونتائجها على الفكر ضمن عنصر الزمن.

من هنا كان أساس التراث النظري الخاص بعلوم الإعلام والاتصال منتجا غربيا خالصا، دارسا لوضعيات اجتماعية وسياقات غربية، حتى وإن كان في الكثير من الحالات وعلى الرغم من تقديمه لنظرة منهجية عميقة وطرح فكري، إلا أنه يخلوا في الوقت ذاته من طرح مرجعي فكري واضح، بل تأثر بالبحوث الإمبريقية المدعومة من الرأسمال الغربي، مع ما يتركه ذلك من اختلالات وتأثيرات على البحث العلمي، إلا أننا لا يمكن أن نجزم باتجاه التأثير في هذا المقام لأنه ليس من مجال دراستنا.

هذا الكلام لا يجعل من علوم الإعلام والاتصال علما غربيا خالصا، بل كان إلى حين، حيث كان الباحث العربي في المرحلة الأولى يعمل على نقل هذا الفكر النظري نقلا حرفيا في إطار سياسة التلقين التي عرفتها الجامعات العربية في وقت سابق، إلا أن العديد من العوامل المتعلقة بالبنية الاجتماعية في المجتمع العربي حولت الباحث العربي من النقل إلى الإسهام الفعلي، لكن الأمر الذي يطرح هنا هو عدم الإشارة إلى مشاركة الباحث العربي في التأسيس للفكر الاتصالي، الكلام هنا عن العديد من الباحثين الذين تشبعوا من الفكر الغربي ضمن سياقه الحقيقي من

[1] أنظر في هذا المجال: عزي عبد الرحمن: التكوين الإعلامي والمتصورات المرجعية، دراسة حالة ميدانية، في المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 10، 1995، ص ص 7-30.

خلال التكوين في مختلف الجامعات الغربية، وقد ظهرت إسهاماتهم بعد العودة، ولنا هنا أن نذكر دراسات عزي عبد الرحمن[1]، عواطف عبد الرحمن، جيهان أحمد رشتي وغيرهم كثير.

ولعل من أبرز الآليات التي ساهمت في تحدث نظرية الاتصال للغة العربية، عامل الترجمة، حيث عملت العديد من الدول العربية على تشجيع الترجمة لنقل المعارف الغربية إلى الحقل المعرفي العربي، إلا أن بعض الترجمات عملت على نقل المعارف ضمن سياقاتها التي أنتجت ضمنها، وهو أمر لا يمكن تجنيبه الصواب، غير أن العديد من الباحثين عملوا على استنطاق النص الغربي من خلال ترجمة سياسية لكتب غربية، انتشرت بصورة كبيرة في أوساط الباحثين العرب، ولعل من أبرز الإسهامات هنا نذكر إسهامات نصر الدين العياضي، رابح صادق[2]، جيهان رشتي، سعد زهران[3]، عبد السلام رضوان[4]، وغيرهم كثير، كما لا يمكن تجاهل عمليات التعريب التي قام بها بعض الباحثين العرب على غرار صلاح عبد الله[5].

كما أن بعض الباحثين العرب ساهموا بجهد كبير في توفير اسهامات فعالة في حقل الإعلام والاتصال، حيث امتد إبداعهم إلى لغات أجنبية على غرار الفرنسية والإنجليزية، من هذا المنطلق يمكن الإشارة إلى الإسهام الكبير لأحمد سليم المشارك مع لوسيان سفاز "Lucien Sfez" في وضع القاموس النقدي لعلوم الإعلام والاتصال، حيث يعتبر مرجعا أساسيا في هذا التخصص، كما لا يمكن إغفال اسهامات عزي عبد الرحمن ومحمد قيراط ومحمود إبراقن وعلي قساسية في تقديم دراسات إعلامية هامة في علوم الإعلام والاتصال وبلغات أخرى غير اللغة العربية.

خامسا: نظرية الحتمية القمية في الإعلام لعزي عبد الرحمن.

تعتبر نظرية الحتمية القيمية في الإعلام الإسهام النظري الجلي لباحث عربي في علوم الإعلام والاتصال، حيث إنبتت هذه النظرية على تراكمات بحثية لباحث عايش الباحثين في الجامعات الأمريكية وعرف السياقات التي ميزت البحث العلمي في هذا التخصص عن قرب، ليعايش بعدها سياقا مختلفا أعاد اكتشافه مستغربا كما قال بعد عودته إلى الجزائر.

تنطلق نظرية الحتمية القيمية في الإعلام من اعتبار الحتمية متغيرا يتم من خلاله تفسير أو فهم أي ظاهرة، لتصبح القيمة المتغير الرئيس في تحديد معالم هذه النظرية، بينما الظاهرة التي تدرسها فهي مجملة في الإعلام والاتصال، مع مختلف الظواهر التي ارتبطت بهذا الحقل المعرفي الذي يوصل باعتباره علما قائما بذاته ومتشعبا من حيث مقارباته وآبائه المؤسسين.

---

[1] عزي عبد الرحمن يعتبر علامة فارقة في هذه الفئة والذي تجاوز الكتابة حول الإنتاج الغربي مسبوغا بالسياق العربي إلى الإسهام الفعلي في التنظير من خلال نظرية الحتمية القيمية.

[2] رابح صادق ونصر الدين العياضي ترجما كتابا عرف رواجا كبيرا في أوساط الباحثين: تاريخ نظرية الاتصال من تأليف أرمان وميشال ماتلار.

[3] مترجم كتاب بناء حضارة جديدة لألفن توفلر

[4] مترجم كتاب المتلاعبون بالعقول لهاربرت شيلر.

[5] قام بتعريب كتاب: أشكال الصراعات المقبلة، حضارة المعلومات وما قبلها، لألفن وهايدي توفلر.

من هنا فإن الحتمية القيمية جاءت بين الحتميات التي عرفها البحث الإعلامواتصالي، فهي تنطلق في تفسيرها للظواهر الإعلامية أو أحد عناصرها من خيال تطبيق مقياس مدى القرب أو البعد من القيمة[1]، بينما تكون المتغيرات الأخرى فالفعل الاجتماعي والتاريخي والاقتصادي متغيرات مكملة وشارحة.

يقسم عزي عبد الرحمن تاريخ نظرية الحتمية القيمية ي الإعلام إلى أربعة مراحل، حيث بدأ التأسيس لنظرية الحتمية القيمية بداية من سنة 1989، حيث شارك مؤسس النظرية في الملتقى العالمي الثالث والعشرون للفكر الإسلامي بتبسة بمداخلة " الإعلام الإسلامي: تعثر الرسالة في عصر الوسيلة"، وهي المداخلة التي اعتبرت من طرف الرواد الأوائل بمثابة الحجر الأساس لمشروع تنظيري ضخم، بدأت معالمه تترسم وتتضح خلال السنوات الأخيرة.

جاءت هذه النظرية معارضة لنظرية ماكلوهان المختصرة في الرسالة في الوسيلة، ليتم الانتقال بعدها حسب نصير بوعلي[2] إلى محور آخر جاء من خلال كتابات وإسهامات المفكر عزي عبد الرحمن "الرسالة هي القيم"، أي أن يكون الاتصال حاملا دائما للقيم الثقافية والروحية التي تدفع بالإنسان والمجتمع إلى الارتقاء والسمو[3].

ثم مرت النظرية إلى مرحلة الانتشار من خلال تبني العديد من الباحثين لها على غرار نصير بوعلي والسعيد بومعيزة، حيث كان لهما الدور الكبير في هذه المرحلة، بل صبحت محل العديد من الدراسات في مرحلة ما بعد التدرج، لتأتي المرحلة الثالثة المتمثلة في توليد شبكة المفاهيم الجديدة، ولعل ما حمله كتاب الإعلام وتفكك البنيات القيمية في المنطقة العربية من مفاهيم على غرار الزمن الإعلامي، الزمن الاجتماعي، الخوف والعنف، الرأسمال الرمزي، عنف اللسان والكتلة الإيمانية، وغيرها من المفاهيم التي شكلت الأساسات القوية لأول إسهام نظري يأخذ السياق العربي والثقافة العربية بعين الاعتبار، خاصة وأنه يتخذ من القرآن والسنة مصدرا لأفكاره، دون إغفال المرجعيات الفكرية المعروفة في الحقل العربي على غرار الورتلاني والنورسي وابن خلدون ومالك ابن نبي.

تعتبر هذه النظرية الإسهام الفعلي العربي الوحيد، فعلى الرغم من إسهام العديد من الباحثين العرب في البناء النظري لعلوم الإعلام والاتصال في المجتمع الغربي، إلا أنهم بقوا على الهامش في الاعتراف بأعمالهم، قبل أن يعود عزي عبد الرحمن إلى الجزائر ويتبنى فكرة بناء نظريته الخاصة، حيث حصل على اعتراف حتى الباحثين في الولايات المتحدة الأمريكية.

---

[1] عزي عبد الرحمن : دعوة إلى فهم نظرية الحتمية القمية في الإعلام، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2011، ص9.

[2] يعتبر من المؤسسن الأوائل لهذه النظرية وساهم كثيرا في نشرها من خلال كتاباته.

[3] نصير بوعلي : الإعلام والقيم، قراءة في نظرية المفكر الجزائري عزي عبد الرحمن، دار الهدى، الجزائر، 2005، ص 48.

في هذا الإطار، لم يقتصر إسهام المفكر عزي عبد الرحمن صاحب البذرة الأولى لهذه النظرية والآباء الأوائل لها على تقديم طرح جديد في نظريات الاتصال، بل امتد تفكيرهم إلى تقديم شبكة من المفاهيم التي تؤثث لهذا الطرح تأسيسا لمفهوم النظرية التي تعتبر شبكة من المصطلحات والتعريفات والافتراضات التي لها علاقة ببعضها البعض، والتي تقترح رؤية منظمة للظاهرة بهدف عرضها والتنبؤ بمظاهرها[1].

كما أن نظرية الحتمية القيمية الإعلامية هي نتاج تفكير عربي خالص، حتى وإن استفاد في المراحل الأولى على المناهج العلمية الغربية، إلا أن صاحب النظرية قدم منهجية جديدة ضمنها كتاب "منهجية الحتمية القيمية في الإعلام"، حيث يقول في مقدمة الكتاب "هذا المؤلف ليس كتابا عن المناهج أو الأساليب المألوفة في حقل الإعلام والاتصال، فهذه موجودة باللغة الإنجليزية بشكل كاف، ويوجد في المراجع باللغة العربية في الموضوع ما يوفي بالغرض...هذا المؤلف يطرح منهجية مغايرة تماشيا مع نظرية الحتمية القيمية في الإعلام، ويمكن تسميتها بمنهجية الحتمية القيمية في الإعلام"[2]، مقدما من خلاله أيضا مقياسا جديدا لدراسة المواضيع من زاوية حضور القيم في مختلف المواضيع المتعلقة بالإعلام والاتصال ومختلف عناصر العملية الاتصالية[3].

تعتبر نظرية الحتمية في الإعلام، مسار يسمح للباحث العربي على اختلاف مستوياته وتوجهاته الفكرية على التواجد من خلال مواضيع ودراسات ضمن بنائي القاعدة النظرية لعلوم الإعلام والاتصال، فهو مسار انطلق من نقد الفكر الغربي ومنهجياته إلى حقل عربي لديه تراث يمكن أن يؤسس لزاوية تفسير وتحليل مجموعة من الظواهر الإعلامية والاتصالية المطروحة ضمن السياق العربي الإسلامي، هذا الطرح المغيب من البناء النظري لحقل الإعلام والاتصال.

تعتبر مسألة اللغة من بين المسائل الهامة التي أدت إلى انتشار النظرية ضمن السياقات الغربية، حيث كان لكتابات مؤسسيها باللغات الأجنبية خاصة الإنجليزية الأثر الكبير في نشر النظرية خارج إطارها التي نضجت فيه، كما أن المواضيع المطروحة شكلت اهتمام الباحثين الشباب الذين أسسوا لمحاور دراسات حديثة تنطلق من مفاهيم النظرية وأطرها المنهجية في تفسير مجموعة من الظواهر الإعلامية والاتصالية.

---

[1] موريس أنجرس: منهجية البحث في العلوم الإنسانية، تدريبات عملية، تر بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص54.

[2] عزي عبد الرحمن: منهجية الحتمية القيمية في الإعلام، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2013، ص 7.

[3] مقياس "ع س ن" وهو أداة منهجية خاصة بنظرية الحتمية القيمية في الإعلام، يشير كل حرف إلى مؤسس من المؤسسين الأوائل للنظرية، وهم عزي عبد الرحمن، السعيد بومعيزة، نصير بوعلي.

خاتمة

انطلاقا مما سبق، يعد اعتبار علوم الإعلام والاتصال بتعدد مواضيعها واختلاف مقارباتها ومناهجها إنتاجا غربيا خالصا، من الحقائق الثابتة التي استمرت في الزمن إلى حين، حيث حملت العشريتين الأخيرتين من القرن الماضي بذور إسهام عربي في بناء القاعدة النظرية لهذه العلوم التي كانت حديثة الاعتراف بها، قبل أن تحمل العشرية الأولى من القرن الحالي انتشارا واسعا لأفكار عزي عبد الرحمن وكوكبة من الباحثين في مختلف الجامعات العربية.

هذا الكلام لا يعني أن الباحث العربي لم يكن له إسهامات من قبل، سواء من خلال الترجمة أو إجراء بحوث حول مواضيع مختلفة، لكنها كانت دائما على الهامش، أو على الأقل كانت عبارة عن إسقاطات لنظريات غربية على سياقات عربية مختلفة من حيث السياق وتأثيراته، أو حتى نقدا للإنتاج الفكري الغربي دون تقديم الجديد، لتأتي نظرية الحتمية القيمية في الإعلام لتجسيد إسهامات العرب في هذا التخصص العلمي المتشعب، لكن هذه المرة ليست من خلال دراسات لباحثين في الغرب، بل لباحثين اتخذوا من السياق والواقع العربي منطلقا لدراساتهم، مستغلين في ذلك المناهج الغربية ومستعينين بالمرجعيات العربية في تفسير نتائج الدراسات التي تراكمت من حيث الكم بدأت تتحسن من حيث النوع والانتشار بين الباحثين الشباب.

- **الهوامش و المراجع :**

1. عزي عبد الرحمن : دراسات في نظرية الاتصال، نحو فكر إعلامي متميز، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان، 2003، ص 7.
2. Dominique Wolton : penser la communication ;Ed Flammarion ; Paris :1997 ; pp 83-84.
3. Philippe Cabin et autres : la communication ; Etat de savoir ; Ed sciences humaines : Auxerre ; 1998.p50.
4. مي العبد الله: إشكاليات علوم الإعلام والاتصال وانعكاساتها على واقع الأبحاث العربية، في ثورة الصورة ، المشهد الإعلامي وفضاء الواقع، سلسلة كتب المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت،2007، ص77.
5. Judith Lazar : la sociologie de la communication de mass ; Ed Armand colin ; Paris.1991 ; P143.
6. عزيز لعبان: وسائل الإعلام والمجتمع، إشكالية التأثير: من الأثر المؤكد إلى الأثر المحتمل، في مجلة الوسيط للدراسات الإعلامية، دار هومة، الجزائر، 2006، ص7.
7. جيهان رشتي : الأسس العلمية لنظريات الإعلام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1994، ص16.

8. عزي عبد الرحمن وآخرون : عالم الاتصال، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص39.
9. أنظر في هذا المجال: عزي عبد الرحمن: التكوين الإعلامي والمتصورات المرجعية، دراسة حالة ميدانية، في المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 10، 1995، ص ص 7-30.
10. رابح صادق ونصر الدين العياضي ترجما كتابا عرف رواجا كبيرا في أوساط الباحثين: تاريخ نظرية الاتصال من تأليف أرمان وميشال ماتلار.
11. عزي عبد الرحمن : دعوة إلى فهم نظرية الحتمية القمية في الإعلام، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط1، 2011، ص9.
12. نصير بوعلي : الإعلام والقيم، قراءة في نظرية المفكر الجزائري عزي عبد الرحمن، دار الهدى، الجزائر، 2005، ص 48.
13. موريس أنجرس: منهجية البحث في العلوم الإنسانية، تدريبات عملية، تر بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص54.
14. عزي عبد الرحمن: منهجية الحتمية القيمية في الإعلام، الدار المتوسطية للنشر، تونس، 2013، ص 7.